الفصل الأول

الرؤية السياسية

المبحث الأول: أحقيتهم في الحكم

المبحث الثاني: مدح الملوك والأمراء

المبحث الثالث: رؤيتهم للآخر (السياسي الغاصب)

المبحث الرابع: رؤيتهم للهزيمة والانكسار

المبحث الأول: أحقيتهم في الحكم

لقد لعب الشعر السياسي دورًا فعالًا في العلاقات السياسية بين ملوك الطوائف، فقد كان بمثابة سلاح ذو حدين استعمل للتعبير على مبادئهم وأفكارهم للوصول إلى غاياتهم، فتميز الشعر السياسي في هذه الفترة بزخارة النماذج وكثرتها وهذا يرجع إلى الخلافات السياسية وكثرة الحروب فيما بينهم والانغماس في اللهو والمجون حتى كان ذلك سببا في سقوط ممالكهم. كما لعب الشعراء دورًا مهمًا في تشجيع ملوكهم على الحرب خاصة ضد النصارى، ومثال ذلك ما كتبه الشاعر في مدح ابن عباد حين رأى شجاعته وبسالته ضد النصارى بقوله:

ولـــم يثبـــت مـــن الأشـــياع إلا شـــقيقك وهـــو صـــارمك الحســـام

يمـــان فـــي يـــدي مـــاض يمـــان فـــلا نـــابي الغـــرار ولا كهـــام [1]

ويظهر التشفي جليا مع السميسر[2]، فقد كان له من مزاجه الحاقد ما جعله يقول في ملوك الطوائف:

خنـــتم فهنـــتم وكـــم أهنـــتم زمـــان كنـــتم بـــلا عيـــون

---

(١) المطرب من أشعار أهل المغرب، أبو الخطاب عمر بن حسن الأندلسي الشهير بابن دحية الكلبي (ت ٦٣٣هـ)، تحقيق: إبراهيم الأبياري، وحامد عبد المجيد، وأحمد أحمد بدوي، دار العلم للجميع للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م، (ص١٢٠)؛ خريدة القصر وجريدة العصر- قسم شعراء المغرب والأندلس ج٢، عماد الدين الكاتب الأصبهاني، محمد بن محمد صفي الدين بن نفيس الدين حامد بن أله، تحقيق: آذرتاش آذرنوش، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧١م، (ص٩٩)؛ دلالات الألوان في شعر الحروب والفتن في الأندلس، يحيى أحمد رمضان غبن، الجامعة الإسلامية غزة، رسالة دكتوراه، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م، (ص٥٢).

(٢) السُّمَيْسِر: حياته وشعره، حلمي إبراهيم عبد الفتاح الكيلاني، مؤتة للبحوث والدراسات، سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة مؤتة، الأردن، المجلد (٧)، العدد (١)، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، (ص ١٤٨،١٥١)؛ شعر السُّمَيْسِر: أبي القاسم خلف بن فرج الإلبيري، بنيونس الزاكي، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد (٢٥)، العدد (١) يوليو / سبتمبر ١٩٩٦م، (ص ٢٠٧ وما بعدها).

فـــأنتم تحـــت كـــل تحـــت وأنـــــــتم دون كـــــــل دون

ســـكنتم يـــا ريـــاح عـــاد وكـــل ريـــح إلـــى ســـكون[1]

ومما يثلج صدر الشاعر انقلاب أوضاع هؤلاء الأمراء رأسا على عقب.

وكنـــتم ســـماء لا ينـــال منالهـــا فصـرتم لـدى مـن لا يسـائكم أرضـا[2]

والشاعر لا يخفى سروره لما أصابهم، وهذا غاية التشفي حيث قال:

وَلَمَّـــا لَـــمْ نَنَـــلْ مِـــنْهُمْ سُـــرُورًا رَأَيْنَـــا فِـــيهِمُ كُـــلَّ الســـرُورِ[3]

كان أبو إسحاق الإلبيري(ت٤٥٦هـ/١٠٦٣م)[4] من أكثر الشعراء الذين توجهوا إلى انتقاد سياسة الحكام خاصة في الاستعانة باليهود، الذين استوزروهم في الحكم، وجعلوهم يتحكمون برقاب المسلمين؛ حيث نصبوهم حكام غرناطة على خزائن الدولة، فآلت إليهم الأمور، ووجد الشاعر نفسه يستثير الأندلسيين للخروج على الحاكم وإقصاء يوسف بن صمويل الوزير اليهودي لباديس بن حبوس، وتجريد اليهود من مناصبهم التي آلت إليهم فيقول في قصيدة طويلة:

أَلا قُـــلْ لِصِـــنْهَاجَةٍ أَجْمَعِـــينْ بُـــدُورِ الزَّمَـــانِ وَأُسْـــدِ العَـــرِينْ

---

(١) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م، (١٠٨/٤)؛ تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط٥، ١٩٧٨م، (ص١٤٢).

(٢) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، المقري، مصدر سابق، (١٠٨/٤)؛ تاريخ الأدب الأندلسي، إحسان عباس، (ص١٤٢).

(٣) المستطرف في كل فن مستطرف، شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي أبو الفتح، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ، (ص١٠٥)؛ نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، المقري، مصدر سابق، (١٠٨/٤).

(٤) الألبيري: نسبة إلى البيرة مدينة قديمة ترجع في تاريخها إلى العصر الروماني وتقع على نهر شنيل استقر فيها عرب الشام. القاموس الإسلامي، أحمد عطية الله، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، محرم ١٣٨٣هـ، (١٦١/١).

لَقَـــــدْ زَلَّ سَـــــيِّدُكُمْ زَلَّـــــةً أَقَـــرَّ بِهَـــا أَعْـــيُنَ الشَّـــامِتِينْ

تَخَيَّـــــرَ كَاتِبَـــــهُ كَافِـــــرًا وَلَـــوْ شَـــاءَ كَـــانَ مِـــنَ المُسْـــلِمِينْ

لَقَـــــدْ زَلَّ سَـــــيِّدُكُمْ زَلَّـــــةً أَقَـــرَّ بِهَـــا أَعْـــيُنَ الشَّـــامِتِينْ

فَعَـــزَّ اليَهُـــودُ بِـــهِ وَانْتَخَـــوْا وَكَـــانُوا مِـــنَ العِتْـــرَةِ الأَرْذَلِـــينْ[1]

ففعلت هذه القصيدة فعل السحر في صنهاجة وأهالي غرناطة فثاروا على اليهود وقتلوا يوسف بن صمويل، ونكلوا باليهود، وقضوا على قياداته المختلفة في الدولة وضعف شأنهم بعد ذلك[2].

وإذا كان الشاعر أبو إسحاق الالبيري قد حقق نجاحًا عمليًا بشعره فإن الأديب الشاعر أبا حفص عمر بن الحسن الهوزنى استشهد في سب الحق لأنه نطق في شعره بما يراه حقا وهو مالم يستسيغه المعتضد عباد ملك إشبيلية، وكان أبو حفص قد رحل إلى المشرق ثم عاد إلى الأندلس فنزل مرسيه وبلغ سمعه ما ألم ببربشتر ووقوعها في يد النورمانديين (٤٥٦هـ/١٠٦٣م) فارسل رقعة إلى المعتضد يقول في افتتاحيتها:

أعبـــاد جـــلّ الـــرزء وَالْقَـــوْم هجـــع علـــى حَالَـــة مَـــا مثلهَـــا يتَوَقَّـــع

---

(١) المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف القاهرة، ط٤، ١٩٩٥م، (١٣٣/٢)؛ تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٦٠ – ١٩٩٥م، (٢٢٦/٨).

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٩٥هـ، (٤٣٩/١-٤٤٠)؛ دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، الطاهر أحمد، دار المعارف القاهرة، ط١، ١٩٨٠م، (ص٦٩– ٨٦)؛ مع شعراء الأندلس والمتنبي، غرسيه غومس، ترجمة: حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٣، ١٩٦٩م، (ص١٢٥-١٢٦)؛ ملوك الطوائف، كامل كيلاني، (ص١٦٤– ١٧٩)؛ تاريخ الفكر الأندلسي، آنخل بالنثيا، ترجمة: حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٥م، (ص١٠٨)؛ البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر في عصر ملوك الطوائف، سعد شلبي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، (د.ت)، (ص٢٧٠ وما بعدها).

فلــق كتــابي مــن فراغــك سَــاعَة وأن طـال فالموصـوف للطـول موضـع

إذا لـــم أبـــث الـــداء رب دوائـــه أصــغت وأهــل للمــلام المضــيع [1]

وضمن رسالته تلك شيئا من نثره وأشعارا أخرى ، وعند ما وصلت إلى المعتضد ارسل خطابا يدعوه إلى بلده إشبيلية فعاد إليها سنة (٤٥٨هـ /١٠٦٥م) وفى ليلة من الليالي وكان أبو حفص في سجن المعتضد (باشر قتله بيده، فلم ينل عباد بعده سولا، ولا متع بدنياه إلا قليلًا ، وإلى الله الإياب ، وعليه الحساب)[2].

ومن طائفة الشعراء الساعين في الإصلاح ونقد الفساد بجميع ألوانه في ذلك العصر خلف بن فرج الألبيري الذى كان يمثل بشعره الرفض العميق لكل ما حوله من مظاهر الحياة السياسية وقد آلمه ما شاع في الناس من ذل وهوان، وما آثره الملوك من الخلود للترف واللهو في الوقت الذي تتقلص فيه بلاد الإسلام أمام الزحف النصراني الذي استغل تنازع ملوك الطوائف وانقسامهم فقال يصف حالهم:

نـــاد الملـــوك وقـــل لهـــم مـــاذا الـــذي أحـــدثتم

أســـلمتم الإســـلام فـــي اســـر العـــدا وقعـــدتم

وجـــب القيـــام علـــيكم إذ بالنصـــارى قمـــتم

لا تنكـــروا شـــق العصـــا فعصـــا البنـــى شـــققتم[3]

يمكن أن نستخلص أن الشعر السياسي كان معبرًا عن العلاقات السياسية، فقد كان مواكبًا للأحداث والخلافات الواقعة بين ملوك الطوائف ودول النصارى، وقد اتسم

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، مصدر سابق، (٨٣/٣)؛ المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي، مصدر سابق، (٢٤٠/١)؛ نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، المقري، مصدر سابق، (٩٣/٢).

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، مصدر سابق، (٨٣/٣).

(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، مصدر سابق، (٨٥٥/٢)؛ تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف، مرجع سابق، (٢٣٣/٨).

بتنوع أغراضه من مدح ونقد وهجاء ورثاء إضافة إلى التشفي عند سقوط مماليكهم، واعتبر بمثابة متنفس للكثير من الشعراء للتعبير عما يدور حولهم.

المبحث الثاني: مدح الملوك والأمراء

اتجه بعض الشعراء في العصر ملوك الطوائف إلى الملوك والولاة والأمراء، وألبس الشعراء ممدوحيهم صفات التقي والورع وحماية المسلمين، وكانت هذه المدائح ضرورة لازمة للملوك وذوي الشأن، ودوافعها النفسية واضحة لا تحتاج إلى بيان، فقد كانت للشعر عند العرب قيمة سياسية كبرى ظل يحتفظ بها على مر العصور، ومن ثم كانت قصيدة المدح تقوم مقام اللوحات الرسمية التي كان غير المسلمين من الملوك يؤجرون الرسامين على رسمها، وكان يحدث أن يكون الملك أو الرئيس شاعرا، فيقول القصائد فخرا بنفسه، ومثل هذه القصائد يدخل في باب المديح أيضًا[١]، أما في عصر أمراء الطوائف فإن عواصمهم تحولت إلى ساحات كبرى للمديح وتحولت قصورهم إلى ندوات واحتفالات لإنشاد الشعراء مع ما يتخلل ذلك من مجال الأنس والطرب والغناء حتى بلغ الأمر ببعضهم ألا يمدح أحدا منهم إلا بمائة دينار، لذلك اقترن الإبداع بالعطاء، ويروى أن المعتمد بن عباد عندما أنشد أمامه بيتان من الشعر للشاعر ابن وهبون[٢]:

قـل الوَفَـاءُ فَمَـا تَلْقَـاهُ فِـي أحَـدٍ ولا يمـــر لمخلـــوق علـــى بـــال

وصـــار عنـــدهم عنقـــاء مُغْرِبـــةً أو مثـل مـا حـدثوا عـن ألـف مثقـال[٣]

يرسل له ألف مثقال ذهب، ولم تكن قصائد المديح كافية لتكسبه، وهنالك قائمة طويلة من الشعراء قد أخلصوا لممدوحيهم وكانوا يمدحونهم عن صدق، وفي الشاعر

---

(١) الشعر الأندلسي بحث تطوره وخصائصه، إميليو غرسية غومس، ترجمة: حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦م، (ص٦٠).

(٢) هو أبو محمد عبد الجليل بن وهبون المرسى، شاعر مشهور، كان حسن الشعر، لطيف المأخذ، حسن التوصل دقة المعاني، جمع ابن بسام شعره في كتاب سماه" الإكليل المشتمل على شعر عبد الجليل". ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، (٤٧٣/١).

(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي، محيي الدين (ت ٦٤٧هـ)، تحقق: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا–بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م، (ص٧٧)؛ نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، المقري، مصدر سابق، (٢٣٥/٣).

ابن اللبانة يقول ابن بسام: "كان مائلا لبني عباد بطبعه، فوفد على المعتمد بعد نفيه وفاده وفاء لا وفاده استجداء"[١].

وكان عبد الجليل على علاقة طيبة بابن عمار وزير المعتمد فقربه إلى مجلس المعتمد حيث امتدحه بأشعاره التي استحسنها المعتمد واعجب بمهارة عبد الجليل فرفع مكانته بين شعراء بلاطه[٢].

ومن أجمل قصائد عبد الجليل التي انشدها بين يدى المعتمد القصيدة التي مطلعها:

محـــل الـــبس الـــدنيا جمـــالًا وأن فضـــح المقاصـــر والخـــلالا
بنـــاه كمـــا بنـــى العليـــاء بـــأن يشـــيد مـــآثرًا ويبيـــد مـــالًا[٣]

ولقد قام ابن عمار[٤] بمدح المعتضد وتعتبر من روائع القصائد العربية، وقال عبد الملك المراكشي: "انه لم يسمع لمتقدم ولا متأخر بمثله[٥]، وفيها تأكيد على معني العطاء والنوال؛ حيث يقول:

أدِرِ الزُّجاجَـةَ فالنّسـيم قـد انبـرَى والـنجمُ قـد صَـرف العنَـانِ عـن السُّـرَى

---

(١) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، المقري، مصدر سابق، (٦١/٢، ٦٢).

(٢) دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، (٦٤/٢).

(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، مصدر سابق، (٥٠٨/٣).

(٤) هو ذو الوزراتين، أبو بكر بن عمار بن الحسين بن عمار المهري الأندلسي الشاعر المشهور، ولد في قرية شنتبوس قرب شلب، وهو من أسرة فقيرة، فكان ينتجع بشعره، ويطوف على ملوك الطوائف، وتعلق في أول أمره بالمعتمد بن عباد في شلب، ثم صحبه إلى إشبيلية، وترقى إلى الوزارة، وأصبح من ألمع شخصيات عصره السياسية، ولكن بعد فتح مرسية، سولت لابن عمار نفسه للاستقلال بها، وينفرد بالحكم فيها ولم يطل به المقام غيها حتى أسر وسجن وقتل من قبل المعتمد بن عباد، سنة ٤٧٧هـ. ينظر: الحلة السراء، ابن الآبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي، تحقيق مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٥م، (١٣١/٢)؛ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨ هـ)، تحقيق: بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م، (٦٤/٢).

(٥) الحلة السراء، ابن الآبار، مصدر سابق، (١٩٤/٢).

والصبحُ قد أهدَى لنا كافورَه لما استردَّ الليلُ منا العَنبرَا

والرَّوْضُ كالحَسْنَا كَساهُ زَهْرُه وَشيًا وقلّده نَداهُ جَوهَرا[1]

ومن الشعراء الذين بكوا المعتمد ومملكته بدموع ساخنة الشاعر ابن عبد الصمد[2] الذي كان وفيا لمليكه في حياته وبعد وفاته الذي تعتبر قصائده في المعتمد نموذجًا للرثاء الصادق لملك يحفه وقار الملوك، وجلال القصور وإذا به يصبح بين ليلة وضحاها منفيًا غريبًا سجينًا مقيدًا في أغلاله على يد رفيق سلاحه يوسف بن تاشفين ثم يموت في سجنه. ولم ينقطع الأصدقاء والشعراء عن ابن عباد في محنته، فقد حافظوا على عهدهم له في محنته كما كانوا على عهدهم له في أوقات الرخاء، ولعل ابن عبد الصمد واحد من هؤلاء الأصدقاء الشعراء الذين رافقه حيا ورثاه ميتًا صبيحة عيد الأضحى، فأقام على قبره ثم خر على ترابه يلثمه وهو ينشد:

ملك الملوك أسامع فأتادي أم قد عدتك عن السماع عوادي[3]

ولعل الإطار الزماني والمكاني للقصيدة من أشد المؤثرات الخارجية التي ساهمت في تشكيل الجو الانفعالي للقصيدة، فقد ألقيت القصيدة صبيحة يوم العيد،

---

(١) قلائد العقيان في محاسن الرؤساء والقضاة والكتاب والأدباء والأعيان، أبو نصر الفتح بن خاقان، المطبعة الأميرية، بولاق، ١٢٨٤هـ/١٨٦٦م، (ص٩٦)؛ الشعر الأندلسي بحث تطوره وخصائصه، إميليو غرسية غومس، مرجع سابق، (ص٥٩).

(٢) هو أبو بكر وأبو بحر" يوسف بن أبي القاسم بن خلف بن أحمد أصله من كورة جيان كان أهله من ذوي الجاه والأدب. اتصل بالمعتمد بن عباد وحظي عنده فارتقت منزلته ونال من المعتمد عطايا كثيرة، ولما استولى المرابطون على الأندلس، وأزالوا جميع ملوك الطوائف وأسروا المعتمد بن عباد تخفى ابن عبد الصمد ثم انتقر في المغرب، ولكنه لم ينل حظوة عند المرابطين. وفي عيد الأضحى وبعد وفاة المعتمد بشهرين. اتفق أن كان ابن عبد الصمد في أغمات (إحدى ضواحي مدينة مراكش) فزار قبر المعتمد مع الزائرين وأنشد عنده القصيدة أعلاد ويبدو أنه توفي في أواخر القرن الخامس الهجري.

(٣) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، المقري، مصدر سابق، (٢٢٤/٤، ٢٥٩)؛ تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، إحسان عباس، مرجع سابق، (ص١٩١)؛ دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، (٣٦٢/٢).

حيث يحتشد الناس الزيارة قبور موتاهم وهو زمن تتقارب فيه القلوب وتتصافي النفوس لما يحمل العيد من مشاعر ومعان سامية، كما أن القصيدة ألقيت على قبر المعتمد، ولا شك أن القبر يثير الحزن الدفين فيتضرم القلب وتدمع العين. فهذا المطلع مشحون بحزن عميق ووفاء كبير، فقد عكست اللغة أحاسيس الشاعر؛ فحذف حرف النداء دليل على قرب المرثي من وجدان الشاعر على الرغم من بعده عنه، ومناداته "بملك الملوك إقرار بمنزلته فهو ما زال ملك الملوك بعد وفاته ويستمر في خطاب المعتمد مبينًا سبب قدومه في قوله:

لما خلت منك القصور ولم تكن فيها كما قد كنت في الأعياد

أقبلت في هذا الثرى لك خاضعًا وتخذت قبرك موضع الإنشاد[1]

لقد اعتاد الشاعر زيارة المعتمد في قصوره، وها هو يزوره في قبره وشتان ما بين الزيارتين ولكن لا شيء يثنيه عن ديمومة اتصاله بابن عباد حيًا وميتًا، وقوله قصور إشارة إلى كثرة القصور التي كان المعتمد ينعم بها ويأتيه الأصدقاء مسلمين مباركين أيام العيد، فقد تداخل الماضي البهيج بالحاضر الحزين في مساحة وجدانية واحدة، وقد أظهر الشاعر قدر وعظمته من خلال التركيب اللغوي تقدم شبه الجملة على الحال في قوله: لك خاضعًا فهو لم يأت زائرا بل خاضعًا بإرادته وهذا هو الولاء الذي لم يقطعه الموت. وبعد أن فرغ الشاعر من تقديم الولاء والطاعة لملكه شرع بالبكاء والنحيب في قوله:

قد كنت أحسب أن تبدد أدمعي نيران حزن أضرمت بفؤادي

فإذا بدمعي كلما أجريته زادت على حرارة الأكباد

فالعين في التسكاب والتهتان والأحشاء في الإحراق والإيقاد[1]

---

(١) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، المقري، مصدر سابق، (٢٢٤/٤، ٢٥٩)؛ تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، إحسان عباس، مرجع سابق، (ص١٩١)؛ دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، (٣٦٢/٢).

تشكل الأبيات ثنائية تتمثل بالماء (الدمع) والنار، فقد تعددت دوال الدمع أدمعي، بدمعي العين التسكاب التهتان وتعددت دوال النار، نيران حرارة، الإحراق الإيقاد" فذات الشاعر موزعة بين الدموع ونار الحزن ويعود الشاعر من ذاته إلى الإشادة بالمرثي في قوله:

يـــا أيهـــا القمـــر المنيـــر أهكـــذا يمحـــي ضـــياء النيـــر الوقـــاد؟[٢]

وهنا يتوسل الشاعر بالنداء والاستعارة لتصوير عظمة المرثي، فهو كالقمر رفيع الشأن عظيم القدر. وينطوي الاستفهام "أهكذا" على قدر كبير من الاستغراب لموت المعتمد ومن العتاب على من كان سببًا في موته. وتتم دوال الإضاءة والإشراق في قوله: "المنير، ضياء المنير، الوقاد على الصورة المشرقة للمعتمد التي يحملها الشاعر في وجدانه ولكن الصورة المشرقة سرعان ما تتحول إلى ظلام في قوله:

أفقـــدت عينـــي مـــذ فقـــدت إنـــارة لحجابهـــا فـــي ظلمـــة وســـواد[٣]

---

(١) قلائد العقيان، أبو نصر الفتح بن خاقان، مرجع سابق، (ص٣٠)؛ دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، (٣٦٢/٢).

(٢) مجاني الأدب في حدائق العرب، رزق الله بن يوسف بن عبد المسيح بن يعقوب شيخو، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩١٣م، (٢٤٤/٥).

(٣) قلائد العقيان، أبو نصر الفتح بن خاقان، مرجع سابق، (ص٣١).

المبحث الثالث: رؤيتهم للآخر (السياسي الغاصب)

شاع شعر الهجاء في عصر ملوك الطوائف، ووجد على نوعين يمكن أن نطلق عليهما الهجاء الاجتماعي، والهجاء السياسي، أما الهجاء الاجتماعي فهو ضرب من الهجاء يوجه فيه الشاعر سهامه إلى أمور تتصل بعادات الناس وطبائعهم وأخلاقهم وصفاتهم، وهو لا يتناولها بطبيعة الحال من جوانبها الإيجابية بل بما فيها من فساد واختلال، فيلتقطها بعينه الناقدة، ويرى فيها مادة غنية بالصور فيجمعها ويبرزها للعيان في صورة منفرة تثير الضيق والاشمئزاز[١].

فالهجاء السياسي قد راج في الأندلس بصورة كبيرة وذلك لأسباب كثيرة أهمها تقلب الأحوال السياسية واضطرابها، واستبداد بعض الحكام بالسلطة وإهمالهم شؤون الرعية، وتقاعسهم عن الجهاد، ومن هذه الأسباب أيضًا ما يرد إلى عوامل شخصية تتمثل في فساد العلاقة بين الشاعر والحاكم كأن يبعده الحاكم عن دائرة اهتمامه[٢].

مثلما قال أبو الحسن جعفر بن الحاج اللورقي في بني عباد:

تَعَـزَّ عَـنِ الـدُّنْيَا وَمَعْـرُوفِ أَهلهَـا إِذا عُـدِمَ المَعْـرُوفُ مِـنْ آَلِ عَبَّـادِ

أَقَمْـتُ بِهِـمْ ضـيفا ثَلَاثَـة أشـهر بِغَيْـر قِـرَىٍ ثُـمَّ ارْتَحَلْـتُ بِـلا زَادِ[٣]

---

(١) الهجاء في الأدب الأندلسي، فوزي سعد عيسى، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٨م، (ص١٣٥).

(٢) الهجاء في الأدب الأندلسي، فوزي سعد عيسى، مرجع سابق، (ص ٣٠).

(٣) المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي، مصدر سابق، (٢٨٠/٢)؛ نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، المقري، مصدر سابق، (٢٢٦/٤).

وقد كان تلقب أمراء الطوائف بالألقاب المشرقية "كالمعتضد، والمعتمد مدعاة لغضب بعض الشعراء، فقد قال ابن رشيق[١] صاحب هجاء بني عباد[٢]:

ممـا يزهـدني فـي أرض أنـدلس أسـماء معتضـد فيهـا ومعتمـد

ألقـاب مملكـة فـي غيـر موضـعها كـالهر يحكـي انتفاخـا صـورة الأسـد[٣]

ولما المعتمد طامعًا في السيطرة على مرسيه أرسل وزيره ابن عمار على رأس جيش لفتحها وتمكن ابن عمار من دخولها والاستيلاء عليها ثم سولت له نفسه الانفراد بها وحكمها بنفسه، وراسله المعتمد لعله يرجع وينثني عما عزم عليه وتبادلًا خلال ذلك مقطوعات من الشعر، لكن الأمر ازداد توترًا بينهما، فتهاجيا بالشعر، ونسبت إلى ابن عمار أبيات مفزعة في هجاء المعتمد منها قوله:

ألا حـي بـالغرب حيـا حِـلالًا أنـا خـوا جمـالًا وحـازوا جمـالًا

وعـرج بيـومين أم القـرى ونـم فعسـى أن تراهـا خيـالًا

لتسـأل عـن سـاكنيها الرمـاد ولـم تـر للنـار فيهـا اشـتعالًا[٤]

---

(١) هو أبو علي الحسن بن رشيق، ولد بالمحمدية أو بالمسيلة في سنة ٣٩٠هـ وانتقل إلى القيروان سنة ٤٠٦هـ، وتتلمذ هناك لأكابر العلماء في الفقه والأدب والبلاغة، ثم رحل إلى المهدية إلى صقلية وبها توفي سنة ٤٦٣هـ، لابن رشيق ديوان شعري حققه: عبد الرحمن ياغي، بيروت. ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، مصدر سابق، (٥٩٧/٢)؛ نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، المقري، مصدر سابق، (٤١٣/١).

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، مصدر سابق، (٥٩٧/٢)

(٣) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، المقري، مصدر سابق، (٢٥٥/٤)؛ موسوعة مرآة الحرمين الشريفين وجزيرة العرب، أيوب صبري باشا، ترجمة: ماجدة مخلوف وحسين مجيب المصري وعبد الغزيز عوض، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، (٤٤٢/١).

(٤) الحلة السراء، ابن الآبار، مصدر سابق، (١٥٧/٢)؛ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، مصدر سابق، ٤١٤/٢٣، ٤١٥)؛ نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، المقري، مصدر سابق، (٢١٢/٤، ٢١٣).

من بين أشعاره التي هجا بها المعتمد وبنيه قوله:

ممَّـا يُقَـبِّحُ عِنْـدِي ذِكْـرَ أَنْـدَلُسٍ سَـمَاعَ مُعْتَمِـدٍ فِيْهَـا وَمُعْتَضِـدِ
أَسْـمَاءُ مَمْلَكَـةٍ فِـي غَيْـرِ مَوْضِـعِهَا كَالهِرِّ يَحْكِي انتِفَاخًا صَوْلَةَ الأَسَدِ[1]

وقد قام ابن عمار بهجاء المعتمد وأفحش في هجائه، وكانت من أقوى الأسباب على قتله، فقد عرض فيها هجاء الرميكية زوجة المعتمد والتي قال فيها :

أيـا فـارس الخيـل يـا زيـدها حميـت الحمـى وأبحـت العيـالا
أراك تـورى بحـب النسـا ء وقـدما عهـدك تهـوي الرجـالا
تخيرتهـا مـن بنـات الهجـ ن رميكيـة لا تسـاوى عقتـالا[2]

وهي قصيدة فيها الفحش والتهجم، وبينما كان منهمكا في لهوه وخمره قام قائد جيشه الذي أرسله المعتمد معه بتبديل العبيد والجند من أتباعه وعندما خرج لرؤية حصن من حصونه، أغلق عليه باب المدينة ولم يتمكن من الدخول إليها فهرب إلى سرقسطة وأميرها المؤمن بن المقتدر بن هود، وأخذ يرسل قصائد استرحام وطلب عفو إلى المعتمد دون فائدة، وأرغب المؤمن في الاستيلاء على حصن شقورة شمالي مرسيه من يد أميرها عتاد الدولة عبد الله بن سهل فوقع في شر أعماله وسجنه عتاد الدولة وعرض رأسه للبيع، فأرسل المعتمد ابنه بمال وخيل وتسلمه من عتاد الدولة

---

(١) سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، دار الحديث- القاهرة، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، (٧٩/١٤، ٥٥٥/١٨)؛ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (ت ٦٨١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧١م، (٤٢٨/٤).

(٢) الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م، (١٦٢/٤)؛ خريدة القصر وجريدة العصر، عماد الدين الكاتب الأصبهاني، مصدر سابق، (ص٨٢)؛ نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، المقري، مصدر سابق، (٢١٢/٤، ٢١٣).

٢٧٧هـ وأودعه في السجن إلى أن استثارته عليه زوجته عندما كان في حالة السكر فضرب رأسه بطبرزين وقتله[١].

وعلى نحو ما هجي به بنو العباد هجي العديد من أمراء الطوائف يقول عبد الملك بن غصن[٢] هاجيا المأمون بن ذي النون:

تلقبت بالمأمون ظلما، وانني لآمن كلبا لست مؤمنه

حرام عليه أن يجود ببشره وأما الندى فاندب هنالك مدفنه

سُطُورُ المخازي دُونَ أَبْوَابِ قَصْرِهِ بِحجَّابِهِ للقَاصِدِينَ مُعَنْوَنَهْ[٣]

هذا وقد نظم الشعراء بغرض عام، هو ما يتجاوز فيه الشاعر رغباته ومصالحه الذاتية إلى أحاسيس الناس العامة، حيث اعترضوا على إساءة الأمراء والحكام في إدارة شؤون البلاد، وتصاغروا أمام أعدائهم، يقول أحد الشعراء بعد خراب قرطبة:

أضعتم الحزم في تدبير أركم ستعلمون معا عقبي البوار غدا

فلو رأيتم بعين الفكر حالكم بكيتم بدم إن دمتم بددا

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، مصدر سابق، (٤١٣/١، ٤٣٢)؛ ابن الخطيب، أبو عبد الله لسان الدين السلماني، أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق ليفي بروفنسال، مكتبة الثقافة الإسلامية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م، (ص١٦٠).

(٢) هو أبو مروان عبد الملك بن غصن كان أحد الأعلام في الأدب والتاريخ والتأليف ونقم عليه المأمون بن ذي النون بسبب صحبته لرئيس بلده ابن عبيدة وبلغه أنه يقع في فنكبه شر نكبه وحبسه، سافر إلى المشرق وتأدب وحج ورجع وشعره كثير. ينظر: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، المقري، مصدر سابق، (٣٦٣/٣، ٤٢٤)؛ الروض المعطار في خبر الأقطار، الحميري، ابن عبد الله محمد بن عبد المنعم، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، (د ت)، (ص٣٧٨).

(٣) المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي، مصدر سابق، (٣٠/٢)؛ نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، المقري، مصدر سابق، (٣٦٣/٣).

لكـن سـبل العمـى أعمـت بصـائرهم فألبســـتكم ثيابـــا للبلـــى جـــددا

يـا أمـة هتكـت مسـتور سـوءتها مـــا كـــل ذل أعطـــى بالصـــغار يـــدا

فـي سـورة الحشـر آيـات مفصـلة جمـــيعكم محنـــة لا تنقضـــي أبـــدا

نعـم وفـي الكهـف عشـرين خاتمـة تقضـــي علـــيكم بـــأن لا تفلحـــوا أبـــدا

فاستشعروا سوء عقباكم فقد شملت جمـــيعكم محنـــة لا تنقضـــي أبـــدا[1]

ومن هذا النوع أيضا أشعار السميسر الذي كان ينتقد الحكام واصفا إياهم بالخيانة، مشيرًا إلى تدني مكانتهم عند الناس حيث يقول:

خُنْـــــتُمْ فهُنْـــــتُمْ وَكَـــــمْ أَهَنْـــتُمْ أيَّـــامَ كُنْـــتُمْ بِـــلا عُيُـــوْنِ

فـــانتم تحـــت كـــل تحـــت وأنـــــــتم دون كـــــــل دون

ســـكنتم يـــا ريـــاح عـــاد وكـــل ريـــح إلـــى ســـكون[2]

وقد أساء تقاعس ملوك الطوائف عن الجهاد الكثير من شعراء عصرهم، فالسميسر الذي كان يحمل الروح الناقدة بين جوائحه يقول في هؤلاء الملوك:

نـــاد الملـــوك وقـــل لهـــم مـــــاذا الـــــذي أحـــــدثتم

أســـــلمتم الإســـــلام فـــــي أســـــر العـــــدا وقعـــــدتم

وجـــب القيـــام علـــيكم إذا بالنصـــــارى قمـــــتم

---

(١) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى المراكشي، أبو عبد الله محمد، تحقيق ومراجعة ج. س كولان واليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط٣، (١١٠/٣)؛ تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٦٠م، (ص١٨٠).

(٢) الدر الفريد وبيت القصيد، محمد بن أيدمر المستعصمي، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥ م، (١٨٩/٦)؛ نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، المقري، مصدر سابق، (١٠٨/٤).

لا تنكـــــروا شـــــق العصـــــا فعصـــــا النبـــــي شـــــققتم[1]

يلاحظ أن هجاء السميسر ليس هجاءًا فرديًا يعبر عن حقد ذاتي أو يستهدف تحقيق منفعة خاصة، فهو لا يوجه هجاءه إلى حاكم بعينه، وإنما يهاجم ملوك الطوائف عامة، معبرً عن سخطه وسخط الناس جميعا إزاء أولئك الحكام الذين شغلوا عن مصالح المسلمين بالجري وراء مصالحهم الخاصة، وأصبح اهتمام كل واحد منهم موزعًا بين شراب يعكف عليه، وجارية يعشقها، وحرب يشنها على جيرانه، وتخاذل أولئك الملوك أمام أعداء الإسلام، وتقاعسوا عن أداء فريضة الجهاد، فسقطت طليطلة، وتهاوت القلاع والحصون، وانحسر المد الإسلامي عن بعض بقاع الأندلس، ويرتفع صوت السميسر الشاعر الغاضب داعيا إلى أولئك الحكام المتخاذلين الذين شقوا عصا طاعة النبي (صل الله عليه وسلم) وأصابوا الإسلام في صميمه[2].

وما نقرؤه من هجاء السميسر يدل على أنه كان من أكثر الشعراء غيرة على الوطن، فهجاؤه صادر من روح وثابة أحبت الوطن، حيث تعدى الهجاء من الذاتية المتفردة إلى الجماعية العامة، ولعل أشد ما كان يؤذي الشاعر مصانعة حكام الطوائف للنصارى؛ حيث انتقد حاكم غرناطة الذي استوزر يهوديا وبعد أن هلك استوزر نصرانيا فكتب أبياتا في ذلك وفر إلى المرية معتصمًا بالمعتصم بن صمادح، وقد وزع الأبيات بعد أن كتبها في طرقات المدينة فطارت في الأفاق يقول فيها:

صـــــاحب غرناطـــــة ســـــفيه وأعلـــــم النـــــاس بـــــالأمور

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، مصدر سابق، (٨٥٥/٢)؛ تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف، مرجع سابق، (٢٣٣/٨).

(٢) الهجاء في الأدب الأندلسي، فوزي سعد عيسى، مرجع سابق، (ص٤٧).

صـــانع أذفـــونش والنصـــارى فـــانظر إلـــى رأيـــه الـــدبير

وشـــاد بنيانـــه خلافـــا لطاعـــة الله والأميـــر

دعـــوة يبنـــي فســـوف يـــدري إذا أتـــت دروة القـــدير[1]

يمكن إضافة إلى الهجاء السياسي هجاء البربر الذين حكموا غرناطة، وقد هجاهم السميسر هجاءًا شديدا، قلل من مكانتهم، ورماهم بكل منقصة؛ حيث يقول:

رَأَيْـت آدم فِـي نـومي فَقلـت لَـهُ أَبَـا الْبَرِيَّـة إِن النَّـاس قـد حكمُـوا

إِن البرابـر نسـل مِنْـك قَـالَ إِذا حَـوَّاء طَـالِق إِن كَـانَ الَّـذِي زَعَمُـوا[2]

كما هجي اليهود واعترض شعراء الأندلس على تحكمهم في شؤون البلاد، وخاصة عندما قوت شوكتهم في عهد ملوك الطوائف، حيث قال ابن الجد:

تحكمـت اليهـود علـى الفـروج وتاهـت بالبغـال وبالسـروج

وقامـت دولـة الأنـذال فينـا وصـار الحكـم فيهـا للعلـوج

فقـل للأعـور الـدجال هـذا زمانـك إن عزمـت علـى الخـروج[3]

كما تميز الهجاء السياسي في الأندلس بزخارة النماذج وكثرتها ويرجع هذا إلى الخلافات السياسية في عصر ملوك الطوائف، وقد كان لهذه الطوائف دور في إذكاء روح التعصب للقبيلة أو الأجناس أو الفكرة السياسية وغيرها، أضف إلى ذلك ما

---

(١) دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، (٣٤٠/٢).

(٢) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، المقري، مصدر سابق، (٤١٢/٣)؛ تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف، مرجع سابق، (٢٣٤/٨).

(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، مصدر سابق، (٥٦٣/٢)؛ تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف، مرجع سابق، (٢٢٥/٨)؛ تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، إحسان عباس، مرجع سابق، (ص١٤٦).

تمتعت به الأندلس من اختلاف مكونات المجتمع بين العرب والبربر واليهود والصقالبة والمولدين وغيرهم.

ومن طائفة الشعراء الساعين في الاصلاح ونقد الفساد بجميع ألوانــه في ذلك العصر خلف بن فرج الألبيري الذى كان يمثل بشعره الرفض العميق لكل ما حوله من مظاهر الحياة السياسية وقد آلمه ما شاع في الناس من ذل وهوان، وما آثره الملوك من الخلود للترف واللهو في الوقت الذي تتقلص فيه بلاد الاسلام أمام الزحف النصراني الذي استغل تنازع ملوك الطوائف وانقسامهم فقال يصف حالهم:

نـــاد الملـــوك وقـــل لهـــم مـــاذا الـــذي أحـــدثتم
اســـلمتم الإســـلام فـــي اســـر العـــدا وقعـــدتم
وجـــب القيـــام علـــيكم إذ بالنصـــارى قمـــتم
لا تتكـــروا شـــق العصـــا فعصـــا النبـــى شـــققتم[1]

ويذكر السلفي بسماعه عن أبي الحسن علي بن محمد بن معدان الصدفي عن أبي الحسن على بن مروان المنكبي قال، كان الباديس بن حبوس وزير يهودي فمات واستوزر بعده نصرانيا ، فقال ابو القاسم خلف بن فرج " السميسر" ثلاثة ابيات وكتب منها نسخا كثيرة وفرقها في شوارع البلد والطرقات وانطلق من ساعته الى المرية ملتجئا للمعتصم بن صمادح ، فذاعت تلك الأبيات في غرناطة

وما لبثت حتى ذاعت في أقطار الأندلس ولما علم بها باديس ارسل في اثر السميسر بعض الفرسان ، ولكنهم لم يتمكنوا من اللحاق به والابيات هي:

كـــل يـــوم إلـــى وراء بـــدل الـــ.....با.....
فزمانـــا تهـــودا وزمانـــا تنصـــرا

(1) الطاهر أحمد: مرجع سابق(ص٧٤)، وانظر بعض أشعاره في الأصفهاني، خريدة القصر قسم شعراء المغرب، ج٢ (ص١٦٧-١٦٩).

وسيصـــــبوا الـــــى المجـــــو س أن الشـــــــيخ عمـــــــرا[1]

(1) معجم السفر، أخبار وتراجم أندلسية (ص٨٣-٨٤)، وانظر كذلك سعد شلبي: البيئة الأندلسية (ص٢٥٩-٢٦٠)، والشطر الثاني من البيت الأول يتضمن ألفاظًا بذيئة رأينا حذفها مراعاة للنزاهة.

المبحث الرابع: رؤيتهم للهزيمة والانكسار

عند سجن المعتمد[١] من طرف المرابطين ونفيه إلى أغمات في إفريقية، فصدرت عنه طائفة كبيرة من الأشعار، ومن شعر محنته ما عبر فيه عما يدور في نفسه وما يقاسيه من الألم، فبعد أن كان ملكا أصبح الآن أسيرا محروما من كل الملذات التي كان يتمتع بها سابقا، وفي هذا يقول:

غَرِيْـبٌ بِـأَرْضِ المَغْـرِبَيْنِ أَسِـيْرٌ سَـيَبْكِي عَلَيْـهِ مِنْبَـرٌ وَسَـرِيْرُ

وتندبـه البـيض الصـوارم والقنـا وينهـل دمـع بيـنهن غزيـر

إذا قيل في أغمات قد مات جوده فمـا يرتجـى للجـود بعـد نشـور

مضـى زمـن والملـك مسـتأنس بـه وأصـبح عنـه اليـوم وهـو نفـور[٢]

يشير المعتمد[٣] إلى أنه غريب بأرض المغرب وأسير، وسوف يبكي عليه المنبر والسرير في إشبيلية، وتندبه السيوف الصوارم والقناع وتذرف الدموع على

---

(١) هو المعتمد محمد بن المعتضد عباد أمير إشبيلية، من سلالة النعمان بن المنذر اللخمى أمير الحيرة في الجاهلية رزق به المعتضد سنة ٤٣١هـ ونشأ في الحلية والزينة والترف، وكان المعتضد أديبًا مثقفًا. ينظر: الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، (٣٩٣/٨)؛ خريدة القصر وجريدة العصر، عماد الدين الكاتب الأصبهاني، مصدر سابق، (ص٢٥، ٢٦).

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، مصدر سابق، (٧٥/٢).

(٣) تنقسم أشعار المعتمد حسب حالته السياسية وما آل إليه أمره إلى قسمين: قسم قاله أبان عزه وسلطانه، وقسم آخر عند ما زال ملكه وتلاشي سلطانه أسير القيود والأحزان، ففي محنته قال اعذب القصائد وأصدقها عاطفة وأبعثها على الحزن الدفين والمرارة العميقة.

وقد جاءت أشعاره في رثاء ماضيه المجيد وسلطانه الغابر وبكاء يومه البائس كثيرة وفريدة، ولم يحدث قبله أن تفجرت ينابيع الشعر في أعماق ملك فصور لنا نكبته ومأساته بفيض عارم من الحزن والإثارة والحرقة كما فعل المعتمد، وعلى الرغم من نهايته الكتيبة إلا أن أشعاره تلك تشع بكبرياء وأنفه. ينظر: تاريخ الفكر الأندلسي،

فراقه، ثم يقول بأن جوده قد مات بأغمات وليس هناك بعده جود، ومن شعره في أسره نستشهد أيضا بهذه الأبيات، حيث يقول:

سلت على يد الخطوب سيوفها فجررن من جسدي الخصيف الأمتنا

ضربت بها أيدي الضروب وإنما ضربت رقاب الأمني نبها المنى

يا أملي العادات من نفحاتنا كفوا فإن الدهر كف أكفنا[1]

يتحدث المعتمد في هذه الأبيات عن المصائب العظيمة التي حلت به، فيشبه الخطوب بالإنسان الذي يحمل السيف ويرفعه في وجه المعتمد ثم يجسد لنا هذه المصائب بجسد المعتمد، ثم يتحدث عن الذعر الذي لا يستقر على حال، فقد كف الدهر أكف المعتمد عن الحكم فأصبح أسيرا بعد أن كان ملكًا.

وقد تأثر الأدباء والشعراء سقوط مدينة بريشتر سنة ٤٥٦هـ على يد النورمانيين، ومن بينهم الفقيه الزاهد ابن العسال فعبر عن ذلك في قصيدة:

وعزيز قومٍ صار في أيديهم فعليه بعد العزة استخذاء

لولا ذنوب المسلمين وأنهم ركبوا الكبائر ما لهن خفاء

ما كان ينصر للنصارى فارس أبدًا عليهم فالذنوب الداء[2]

آنخل بالنثيا، ترجمة: حسين مؤنس، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، ١٩٥٥م، (ص١٠١)، دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، الطاهر أحمد، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م، (ص٢٦٤- ٢٦٥).

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، تحقيق: مصطفي أبو ضيف، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٤م، (٤٦٢/٢٣).

(٢) الروض المعطار في خبر الأقطار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحِميرى، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م، (ص٩١)؛ صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب

يظهر لنا في هذه الأبيات أن ابن عسال كان متأثرًا نفسيًا لنتائج هذه الفاجعة، ومن خلال هذه الأبيات يحدد لنا مكمن المشكل وأصله حيث يقول: "فحماتنا في حربهم جبناء"[١]. إضافة إلى تحميله للأندلسيين جزءا كبيرا من سبب سقوط مدينة بريشتر، وذلك حيد ذكر الشاعر بأنهم مجاهرون في الكبائر.

ومن بين الأدباء الأندلسيين الذين تأثروا لسقوط مدينة بريشتر أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني صديق المعتمد بن عباد أمير إشبيلية، وكان أبو حفص مقيما في مرسية، وعند سقوط بريشتر راسل صديقه المعتمد مرغبا إياه بالجهاد وأن الخطر النصراني قادم إليه لا محالة، فقال له في رسالة[٢] من رسائله:

أعبـاد جـلّ الـرزء وَالْقَـوْم هجـع علـى حَالَـة مَـا مثلهَـا يتوَقَّـع

فلـق كتـابي مـن فراغـك سَـاعَة وان طَـال فالموصـوف للطـول مَوضِـع

إِذا لـم أبـث الـدَّاء رب نجاحـه أضـعت وَأهـل للمـلام المضـيع[٣]

عبرة القصيدة عن فاجعة سقوط طليطلة، كما تبين من خلالها مدى تأثيرها في النفسية؛ فاستهل الشاعر القصيدة بتصور حزن وبكاء كل ثغور الأندلس على سقوط المدينة، فيقول في بعض أبيات القصيدة:

الروض المعطار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحِميرى، تحقيق: لافي بروفنسال، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، (ص٤١)

(١) الأمير شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والأثار الأندلسية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت)، (٥١٨/٣).

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، مصدر سابق، (٣٤/٣).

(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، مصدر سابق، (٨٣/٣)؛ المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي، مصدر سابق، (٢٤٠/١)؛ نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، المقري، مصدر سابق، (٩٣/٢).

رضـــوا بـــالرق يـــالله مـــاذا رآه ومـــا أشـــار بـــه مشـــير

مضـى الإسـلام فابـك دمًـا عليـه فمـا ينفـي الجـوى الـدمع الغزيـر

ونـــح وانـــدب رفاقًـــا فـــي فـــلاة حيـــارى لا تحـــط ولا تســـير

ولا تجـــنح إلـــى ســـلم وحـــارب عســـى أن يجبـــر العظـــم الكســـير[1]

ففي هذه الأبيات يعبر الشاعر عن الفاجعة بشيء من الاختلاط في المشاعر بين الحزن والأسى والوصف والتفسير، مع وجود بعض الأمر الذي يظهر بعيدا إلا أن الشاعر لم يلغه بشكل كلي، وهي قصيدة جاءت في جملتها سهلة مستساغة بعيدة عن التكلف والافتعال معتمدة على أسلوب البساطة عنوانا لها، فيها من الإثارة والتفجع والحزن والسرد القصصي مليئة بالوسائل الفنية السهلة مع خلوها من زخارف الصور البيانية حتى أصبحت شبيهة بالقطعة النثرية التاريخية.

وعندما سقطت مدينة بلنسية في يد النصارى أثارت الشاعر الأندلسي ابن خفاجة فقال في رثائها:

عائـــت بســـاحتك العـــدى يـــا دار ومحـــا محاســـنك البلـــي والنـــار

فـــإذا تـــردد فـــي جنابـــك نـــاظر طـــال اعتبـــار فيـــك واســـتعبار

أرض تقاذفـــت الخطـــوب بأهلهـــا وتمخضـــت بخرابهـــا الأقـــدار

كتبـت يـد الحـدثان فـي عرصـاتها لا أنـــت أنـــت ولا الـــديار ديـــار[1]

---

(١) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، المقري، مصدر سابق، (٤/٤٨٥)؛ تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، إحسان عباس، مرجع سابق، (ص١٨٥)؛ دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، (٢/١١٨).

ومن الواضح أن قصيدة ابن خفاجة أكثر أبيانا وأطول، ولم يبق منها إلا هذه الأربعة أبيات وفيها رغم قلتها تعبير قوي وصادق عن مدينة بلنسية التي تردد عليها وأخذ منها العلم، وله فيها أصدقاء وأقارب، فكان أسلوبه حزينا متحسرا على ضياعها، وعلى سيطرت النصارى عليها وما أحدثوه في مساجدها ومعالمها، وهو الأمر الذي استنهض همم المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين الذي جمع العدة لها واسترجعها وتحريرها من يد النصارى فقال في هذه الحادثة الشاعر ابن خفاجة مستبشرًا:

الآن ســح تمــام النصــر فــانهملا وقــام صــغو عمــود الــدين فاعتــدلا

ولاح للسـعد نجـم قـد خـوى فهـوى وكـر للنصـر عصـر قـد مضـى فخـلا[٢]

وهي أبيات تعبر عن الروح المنقلبة للشاعر ابن خفاجة بين الحالتين المتناقضتين تمامًا، بين الهزيمة والانتصار بين الذل والمجد، فكانت الأبيات متناغمة بشكل كلي في النبرة والموضوع والألفاظ بين الحادثتين.

يعد ابن اللبانة"[٣] من الشعراء الذين بكوا وتحسروا على أيام المعتمد الخوالي؛ فحمل هذه الراية، وأطال الوقوف على أطلال مملكة بني عباد مذيبًا روحه وقلبه وفاءً

---

(١) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، المقري، مصدر سابق، (٤/٤٥٥)؛ تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، إحسان عباس، مرجع سابق، (ص١٨٧)؛ دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، (٢/٢٤٦).

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، إحسان عباس، مرجع سابق، (ص١٨٧).

(٣) هو محمد بن عيسى اللخمي من أهل دانية، نشأ يتيمًا فقيرًا، كانت أمه تبيع اللبن لتعليمه، ترك دانية متوجها إلى بطليوس قلم يسعفه الحظ عند المتوكل بن الأفطس قصد أشبيلية ونال حظوة عند المعتمد وأصبح صديقه وشاعره. ينظر: العبر في خبر من غبر، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت ٧٤٨ هـ)، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، (٢/٣٩١)؛ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن

لهذا الملك، شاهدًا على المآسي والنهايات المفجعة التي آل إليها، فقال فيه القصائد الطويلة والقصيرة التي عبرت عن روح لوعها الحزن وأثقلتها الذكريات، فقال معتصرًا زفراته الملتهبة في دالية حزينة تتفطر لها النفوس ومنها قوله:

تَبْكِي السَّمَاءُ بِدَمْعٍ رَائِحٍ غَادِي عَلَى البَهَالِيلِ مِنْ أَبْنَاءِ عَبَّادِ

عَلَى الْجِبَالِ الَّتِي هُدَّتْ قَوَاعِدُهَا وَكَانَتِ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ذَاتَ أَوْتَادِ

عِرِّيسَةٍ دَخَلَتْهَا النَّائِبَاتُ عَلَى أَسَاوِدَ مِنْهُمْ فِيهَا وَآسَادِ

وَكَعْبَةٍ كَانَتِ الْآمَالُ تَعْمُرُهَا فَالْيَوْمَ لَا عَاكِفٌ فِيهَا وَلَا بَادِ

الق السلاح وخل المشرفي فقد أصبحت في لهوات الضيغم العادي[1]

لقد استثمر الشاعر ثنائية السماء والأرض لرسم صورة كونية تتلاءم مع أحاسيسه وانفعالاته، فعمد إلى إعادة تشكيل المعطيات الكونية؛ فالسماء تبكي على آل عباد، والجبال هدت قواعدها فمادت الأرض بمن عليها، لقد انطوى البناء الاستعاري على صورة ذهنية مكثفة قادرة على إثارة ذهن المتلقي ليتخيل غزارة المطر دموعًا، وزوال الجبال وما يعقبه من دمار.

لقد سعى الشاعر من خلال الصور الكونية الحزينة والصور الجزئية إلى خلق جو نفسي حزين توطئه لتصوير الوقائع والأحداث والتي ألمت ببني عباد، فبدأ بالعام ليكون مدخلًا ذهنيًا ونفسيًا للخاص، فالانطلاق من الإطار الكوني العام لتصوير

قَايْماز الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، حقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م، (٢٦٥/٣٣).

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، مصدر سابق، (٨٠/٣)؛ المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، (ص١٠٩)؛ شعر ابن اللبانة الداني، محمد مجيد السعيد، منشورات جامعة البصرة، ١٩٧٧م، (ص٤٠).

معطيات الإطار الخاص أشد وقعًا وأكثر جاذبية من الشروع بتصوير الوقائع الخاصة للحدث. ويتابع ابن اللبانة حزنه قائلًا:

حـان الـوداع فضـجت كـل صـارخة وصـارخ مـن مفـداة ومـن فـادي

سـارت سـفائنهم والنـوح يصـحبها كأنهـا إبـل يحـدو بهـا الحـادي

كم سال في الماء من دمع وكم حملت تلـك القطـائع مـن قطعـات أكبـاد[1]

وعلى الرغم من قلة دوال البكاء والدموع في الأبيات إلا أن استهلال القصيدة بينية استعارية تبكي السماء لتصوير غزارة الدموع على مصير آل عباد، والمجانسة بين قوله: "اعتبروا" و"المعبرين"، وتوظيف "كم" الخبرية؛ كل ذلك عمل على جعل القصيدة بكائية تفيض نحيبًا وعويلًا؛ لأن الصيغ الفنية واللغوية التي استخدمها الشاعر لإبراز الصورة البكائية، هي صور عميقة ومكثفة، فالبنية الاستعارية رسمت مساحة شاسعة للبكاء، فضلًا عن الأفق التخيلي لها، والجناس بين دلالة الدموع وضفتي النهر، عمل على ربط الدموع بماء النهر وذلك إظهارًا لكثرة الدموع. أما "كم" الخبرية فتوحي بمقدار غير محدود للدموع التي سالت حزنًا على آل عباد[2].

ويتابع ابن اللبانة آهاته قائلًا[3]:

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، مصدر سابق، (٨١/٣)؛ المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، (ص١١٠)؛ نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، المقري، مصدر سابق، (٢١٥/٤).

(٢) الخطاب الشعري عند محمود درويش دراسة أسلوبية، محمد صلاح زكي أبو حميدة، مطبعة المقداد، غزة، ط١، ٢٠٠٠، (ص٣٠١)؛ الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، جابر عصفور، دار التنوير، ط٢، ١٩٨٣، (ص٦١)؛ تشكيل الصورة في شعر زهير بن أبي سلمى، عبد القادر الرباعي، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، المجلد (١١)، العدد (٢)، ١٩٨٤م، (ص٦٢٣)؛ قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، دار العلم للملايين، بيروت، ط٧، ١٩٨٣، ص(٢٧٦).

(٣) السعيد، د. محمد مجيد: شعر ابن التبانة، ص٢٦.

لهفـــى علـــى آل عبـــاد فـــإنهم أهلـــه مالهـــا فـــي الأفـــق هـــالات
تمســـكت بعـــرى اللـــذات ذاتهـــم يـــا بـــئس مـــا جنـــت اللـــذات والـــذات
راح الحيـــا وغـــدا مـــنهم بمنزلـــة كانـــت لنـــا بكـــر فيهـــا وراحـــات

بعد موجات الحزن المتلاحقة التي غرق بها ابن اللبانة، يستعرض الأيام الخوالي في كنف المعتمد، رابطًا الحاضر الحزين بالماضي السعيد الذي ذهب مع الريح، مرجعًا هذا الجرح الدامي في جسد دولة العبادلة إلى انغماسهم بملذات الدنيا على حساب حماية الثغور والدفاع عن حياض الأمة الإسلامية ضد الإسبان الغاصبين.

ومن الشعراء الذين بكوا المعتمد ومملكته بدموع ساخنة الشاعر "ابن عبد الصمد"[١] الذي كان وفيا لمليكه في حياته وبعد وفاته الذي تعتبر قصائده في المعتمد نموذجًا للرثاء الصادق لملك يحفه وقار الملوك، وجلال القصور وإذا به يصبح بين ليلة وضحاها منفيًا غريبًا سجينًا مقيدًا في أغلاله على يد رفيق سلاحه يوسف بن تاشفين ثم يموت في سجنه. ولم ينقطع

الأصدقاء والشعراء عن ابن عباد في محنته، فقد حافظوا على عهدهم له في محنته كما كانوا على عهدهم له في أوقات الرخاء، ولعل ابن عبد الصمد واحد من هؤلاء

([١])ابن عبد الصمد : أبو بكر وأبو بحر" يوسف بن أبي القاسم بن خلف بن أحمد أصله من كورة جيان كان أهله من ذوي الجاه والأدب. اتصل بالمعتمد بن عباد وحظي عنده فارتقت منزلته ونال من المعتمد عطايا كثيرة، ولما استولى المرابطون على الأندلس، وأزالوا جميع ملوك الطوائف وأسروا المعتمد بن عباد تخفى ابن عبد الصمد ثم انتقر في المغرب، ولكنه لم ينل حظوة عند المرابطين. وفي عيد الأضحى وبعد وفاة المعتمد بشهرين. اتفق أن كان ابن عبد الصمد في أغمات (إحدى ضواحي مدينة مراكش) فزار قبر المعتمد مع الزائرين وأنشد عنده القصيدة أعلاد ويبدو أنه توفي في أواخر القرن الخامس الهجري أخذت الترجمة من كتاب عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي. ٤/٧٢٥. ولمزيد من المعلومات تنظر الكتب التالية : ابن خاقان. القلائد ص٣٤-٣٥ ابن بسام : الذخيرة، ٢:٣/٨٠٩-٨١٠، ابن سعيد :
المغرب. ٢/٢٠٣-٢٠٤. ابن الخطيب: أعمال الأعلام. ١٦٥- ١٦٦ - نيكل : مختارات نيكل، ص١٥٣.

الأصدقاء الشعراء الذين رافقه حيا ورثاه ميتًا صبيحة عيد الأضحى، فأقام على قبره ثم خر على ترابه يلثمه وهو ينشد [١]:

ملـــك الملـــوك أســـامع فأتـــادي أم قـد عـدتك عـن السـماع عـوادي

وعند ما سقطت عروش ملوك الطوائف وزال سلطان بنى الأفطس فجع ابن عبدون بمصابهم وبكى مأساتهم، ورثاهم بقصيدته الرائعة الشهيرة التي سارت بها الركبان وتناقلتها الألسن[٢].

ويقول في مطلع هذه القصيدة:

الـدَّهْرُ يَفْجَـعُ بَعْـدَ العَـينِ بـالأثَرِ فَمَـا البُكَـاءُ عَلَـى الأَشْـبَاحِ وَالصُّـوَرِ
أنهـــاك أنهـــاك لا ألـــوك موعظـــة عـن نومـة بـين نـاب الليـث والظفـر
فالـدهر حـرب وإن أبـدى مسـالمة والبيض والسود مثل البيض والسمر
ولا هـــوادة بـــين الـــرأس تأخـــذه يـد الضـرائب وبـين الصـارم الـذكر
فـــلا تغرنـــك مـــن دنيـــاك نومتهـــا فما صناعة عينيها سوى السهر[٣]

إن استهلال مطلع القصيدة بلفظ "الدهر" ينم عن إحساس مثقل به وبعواقبه، ويكشف عن رؤية الشاعر للحياة عمومًا؛ فهو ينظر إليها بمنظار التشاؤم والحذر والريبة، ويدعو المتلقي لمشاركته في نظرته، فيلح عليه بأسلوب التكرار أنهاك أنهاك لئلا يأمن جانب الدهر، ويوظف الصور الفنية للتأثير والإقناع، فيصور من يأمن عواقب الدهر بمن يأمن على حياته بين فكي أسد، ويكرر لفظة الدهر لما تختزله

---

(١)المقري: نفخ الطيب، ٣/٥٣٤.

(٢) المراكشي: نفس المصدر(ص١١٢)، ابن خاقان: المطمح (ص١٥١) وما بعدها.

(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، مصدر سابق، (٤/٧٢١)؛ المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، (ص٦٢)؛ نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، المقري، مصدر سابق، (١/١٨٥، ٤٤٢، ٣/٩٠٦، ٤/٢٢٥، ٥/١٥٥).

من إحساس عميق بفعل الدهر وغدره، فيصوره حربًا لا تتوقف، وإن أبدى مسالمة، ومن أجل تصوير ديمومة المصائب التي يجلبها الدهر فقد عمد الشاعر إلى المجانسة بين الأيام والليالي البيض والسود من جهة، والسيوف والرماح "البيض والسمر من جهة أخرى. ويستبدل الشاعر بالدهر كلمة "الليالي" ويكررها مرة أخرى في البيت نفسه ودلالة الجملة الدعائية أقال الله عثرتنا"، يدلان على كثافة الإحساس بجسامة الأحداث التي يأتي بها الدهر وتعد كلمة "الليالي" مركز جذب دلالي في القصيدة؛ إذ ارتبط بها ثلاثة وثلاثون بيتا من خلال الأفعال الماضية التي يعود الضمير المستتر فيها على الليالي[١]

فقد صور الشاعر فعل الدهر أو الليالي بالأمم السابقة، والملوك العظماء وذوي الشأن الذين لم يبق لهم أثر ، وذلك من خلال سرد تاريخي مطول بهدف تسويغ سقوط ملك بني الأفطس" ويمهد الشاعر لفعل الليالي بصورة فنية مثيرة وذلك في قوله[٢]:

تمـر بالشـيء لكـن لا تغـر بـه كـالإيم ثـار إلـى الجـاني مـن الزهـر

هكذا شأن الحياة أو "الليالي تفتك بالإنسان على الرغم من مظاهر الحسن الخادعة، كما الحية التي تخرج من بين الثمر فتفتك بمن يجني الثمر والزهر.

وبعد هذه التوطئة النفسية يشرع الشاعر بذكر الوقائع والأحداث، بادئًا سرده التاريخي بقوله[٣]:

كـم دولـة وليـت بالنصـر خـدمتها لـم تبـق منهـا وسـل دنيـاك عـن خبـر

---

(١) ابن عبدون: الديوان، ص١٣٩- ١٤٠. وأيضًا تنظر هذه الأبيات عند ابن بسام، الذخيرة، ق٢، م٢/٧٢١. المراكشي: المعجب، ص١٢٩.

(٢) ابن عبدون: الديوان، ص١٤٠.

(٣) المصدر السابق. ص١٤٠.

فقد بدأ بأسلوب الإجمال مستخدمًا "كم" الخبرية ثم انتقل إلى أسلوب التفعيل الذي استغرق ثلاثة وثلاثين بيتًا قبل البدء بالغرض الرئيس.

سمات وخصائص التي امتاز بها شعر رثاء الممالك:

كان للطبقة الحاكمة وأقصد ملوك الطوائف دور "فعال" في مضمون التعبير الشعري أو النثري، فالشاعر يقدم مراثيه ليعبر لهذا الملك عن الولاء المطلق في السراء والضراء، لهذا امتاز شعرهم بسمات وميزات عديدة نجملها بالآتي.

١. السهولة والرقة ووضوح المعاني، وتدفق العبارة وانسيابها بكل بساطة وشفافية.
٢. غزارة النتاج الشعري، وما اشتملت عليه قصيدة الرثاء من معاني كثيرة، كالبكاء والعويل، وتسليم الأمور إلى الله.
٣. نضح التجربة الفنية أضفى على القصيدة صدقًا فنيًا، بالإضافة إلى وضوح العاطفة وظهورها كعنصر بارز في هذا اللون من الرثاء، الذي ألهبته مرارة الرحيل وصعوبة الفراق وخاصة في أشعار ابن اللبانة وابن حمد يس".
٤. استلهام القرآن الكريم والسنة النبوية لمن الشاعر بالأفكار والصور والمعاني المختلفة.
٥. تجسيد الخيال حيث الاستعارة والتشبيه والابتعاد عن الصنعة اللفظية وعدم التكلف إلا في بعض المواضع، ولكن كثرت وشاعت الأساليب الإنشائية كالشرط والاستفهام وغيرها.
٦. لجوء الشعراء إلى الحكمة والدعوة إلى أخذ العبر والعظات من دهر يتصف بالتحول والتقلب وعدم الثبات على حال من الأحوال، وتتضح هذه السمة في أشعار "ابن عبدون" فتواجه على بني الأفطس اختلط بتحولات الزمن وعدم استقراره.

٧. لجأ الأندلسيون إلى الطبيعة بمظاهرها المختلفة ينشدون العزاء والسلوان في رحابها الخضراء، حيث أثرت الطبيعة الأندلسية بالشعر بعامة ويظهر ذلك في شعر الرثاء وفي هذا الموضوع يقول د. عمر الدقاق : وثمة شعر شجي عذب تدفق من قرائح شعراء كتب عليهم أن يعيشوا في منأى عن أوطانهم مثل ابن زيدون في استخفائه وتشرده وابن خفاجة في حجرته، وأغترابه و ابن حمديس في نزوحه وترحله، وابن عباد في متقاه وأسره، كل هذا الشعر شديد التلاحم مع الطبيعة، شديد الليفة عليها، حتى لتبدوا الأندلس الوعاء الرحيب لكل مشاعر الشوق والحنين التي انطوت عليه جوانحهم في أبان محنتهم.

النموذج التطبيقي :

_ كتب ابن اللبانة[1] في رثاء مملكة بني عباد :

تَبْكِي السَّمَاءُ بِدَمْعٍ رَائِحٍ غَادِي

عَلَى البَهَالِيلِ مِنْ أَبْنَاءِ عَبَّادِ

عَلَى الْجِبَالِ الَّتِي هُدَّتْ قَوَاعِدُهَا

وَكَانَتِ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ذَاتَ أَوْتَادِ

يَا ضَيْفُ أَقْفَرَ بَيْتُ الْمَكْرُمَاتِ فَخُذ

فِي ضَمِّ رَحْلِكَ وَاجْمَعْ فَضْلَةَ الزَّادِ

و يَا مُؤمِّلَ وَادِيهِمْ لِيَسْكُنَهُ

خَفَّ القَطِينُ وَجَفَّ الزَّرْعُ بِالوَادِي

إِنْ يُخْلَعُوا فَبَنُو الْعَبَّاسِ قَدْ خُلِعَوا

وَقَدْ خَلَتْ قَبْلَ حِمْصٍ أَرْضُ بَغْدَادِ

حَانَ الوَدَاعُ فَضَجَّتْ كُلُّ صَارِخَةٍ

وَصَارِخٍ مِنْ مُفَدَّاةٍ وَمِنْ فَادِي

نجد الشاعر هنا قد تحدث عن سقوط دولة بني عباد فتتجلى لديه رؤية مأساوية للعالم لأنها كانت من أقوى الدويلات سياسيًا في هذا العصر ، وكأن المعطيات الكونية برمتها حزينة على سقوط دولة بني عباد وليس المسلمين فحسب ، واستدل

[1] ديوان ابن اللبانة الداني ، د/ محمد مجيد السعيد ، دار الراية ، عمان ،ط٢ ،٢٠٠٨.

على ذلك بقوله (تبكي _ بدمع)، وذكره لهد قواعد الجبال ليس فقط للتدليل على مدى الحزن والتأثر لما حل بالأندلس ، ولكنها إشارة واضحة لما كانت عليه الأندلس سابقاً ، فهي كانت كالجبل الشامخ ، وقد وظف ابن اللبانة مفردات اللغة لإبراز هذه الحالة المأساوية ، ففي (تبكي _ بدمع _ هُدت _ أقفر _ جف _ صارخة) دلالة واضحة على معاناة الشاعر وحزنه لسقوط هذا الصرح الشامخ ، ونلاحظ هنا أن الوعي الفعلي للشاعر يتصدره سوداوية المشهد الحاضر، فجمع الشاعر بين مفردات الطبيعة (السماء والأرض والجبال) وأعاد تشكيلهم بما يتلاءم مع أحاسيسه في ذلك الوقت ، مثلما ورد عند أبي البقاء الرندي في نونيته الشهيرة حين أعاد وصف وتشكيل المعالم الدينية في الأندلس بما يتوافق مع سوداوية المشهد ، فيقول :

حتى المَحَارِيبُ تَبكِي وهي جَامِدةٌ

حتى المَنابِر تَرثِي وَهي عِيدانُ

_ يقول ابن زيدون [1] :

ليسَ الرّكونُ إلى الدّنيا دَليلَ حِجًى ، فإنّها دُوَلٌ، أيّامُهَا مُتَعُ

تأتي الرّزايا نظاماً من حوادِثِهَا، إذِ الفَوائِدُ، في أثْنَائِهَا، لُمَعُ

أهلُ النّباهةِ أمثالي لدهرِهِمُ، بقَصرِهِمْ، دون غاياتِ المُنى ، وَلَعُ

لولا بنو جهورٍ ما أشرقَتْ همَمي، كمِثْلِ بِيضِ اللّيالي، دُونَها الدُّرَعُ

همُ الملوكُ، ملوكُ الأرضِ دونهمُ، غِيدُ السّوالِفِ، في أجيادِها تَلَعُ

يمتدح الشاعر أبا الوليد بن جهور في هذه الأبيات ، حيث أسقط رؤيته العقلانية من خلال نفيه لمتاع الدنيا في قوله : (ليس الركون إلى الدنيا دليل حجىً) ، ثم يفصح

[1] ديوان ابن زيدون ، شرح د/يوسف فرحات ،دار الكتاب العربي ، ط٢، ١٩٩٤ م.

الشاعر عن خصومته مع الدهر الذي يأتي بالمصائب تباعاً واحدة تلو الأخرى وفي هذا إشارة لما حل بالبلاد من تهاوي وسقوط وتفرق الأندلس إلى دويلات وطوائف ، وهو بذلك يجمع بين رؤية سوداوية للعالم وما حل بالأندلس من شتات وبين رؤية عقلانية ووعي ممكن وتفاؤل بما ينتظره في عهد بني جهور ، وأيضاً ترتكز بنيات النص الداخلية على أخذ الحيطة في التعامل مع نوائب الدنيا وزينتها ، ويتطرق الشاعر بعد ذلك لمدح بني جهور فتكرار كلمة (ملوك) يؤكد على أن ما عداهم هو مجرد سعي وراء الحسان ، واستخدام الشاعر ل(النباهة _ المنى _ أشرقت _بيض) دلالة على استبشاره بتولي بني جهور الحكم .